

"رعاية أحوال المخاطبين في الخطاب النبوي- أزواج النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً"

سميرة نازش*

Abstract

The speaker creates an expression of fluency and persuasiveness, under the need of situational requirement that have a great impact on soul. Situational requirement is an important eloquent and fluent code which is the crust and essence of fluency hence shows appropriateness of speech with the situation. Speech is directly influenced by the situation. It raises the particular factors that lead the speakers to speak on the main object which defines appropriate situation. The situation in the speech is contradictory and affirmation of speech that depicts the requirement of the speech. Our Holy Prophet is the most rhetoric, fluent and persuasive among Arabs. One important feature of his speech is patronage of the person's situation, doesn't matter who is that particular person. This research deals with his speech's style in dealing with his wives who varied at different places, at different roles like merciful, friendly, affectionate and educationist etc. Alahadeeth of Saheeh al-Bukhary are the proof of all the above mentioned qualities of Holy Prophet.

Keyword: Prophetic speech, auspices of the requirement of addressee's situation

مقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد رسول الله العربي الأمي الكريم، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه، وبعد:

فإن الخطاب هو التعبير الذي أنشأه المتكلم، والخطاب البليغ هو الذي يصوره المتكلم برعاية مقتضى الحال ويبلغ تأثيره إلى النفوس. ومقتضى الحال مذهب بلاغي، يعد لب البلاغة وجوهرها، وهو أن يكون الكلام - مع فصاحته - مناسباً للحال.

والحال هي مجموعة الأمور التي تحيط بالكلام وتؤثر فيه، فتدعو إلى التكلم على وجه مخصوص، بحيث يكون للكلام خصوصية زائدة على أصل المراد، وهذه الخصوصية هي (مقتضى الحال)، ف (الحال) في المخاطب هي الإنكار أو عدمه، و (مقتضى الحال) هو تأكيد الكلام أو عدمه.

* أستاذة مساعدة بكلية اللغة العربية وآدابها، الجامعة الإسلامية العلمية، إسلام آباد-

إن النبي الكريم ﷺ أفصح العرب وأبلغهم، ومن أهم خصائص حديثه مراعاة حال من يخاطبه سواء أكان رجلاً أم امرأة، فجاء اختياري لموضوع هذه الدراسة بعنوان: "رعاية أحوال المخاطبين في الخطاب النبوي - أزواج النبي ﷺ نموذجاً".

ويختص هذا البحث ببيان أساليبه في التعامل مع زوجاته التي تنوعت واختلقت في مقام الرحمة والعطف، وفي مقام المؤانسة والمودة، وفي مقام الترويح والترفيه، وفي مقام التعليم والتربية برعاية أحوالهن. وذلك من خلال الأحاديث الواردة في صحيح البخاري.

رعاية أحوال المخاطبين:

يعدّ المتكلم والمخاطب والعلاقة بينهما من أهم عناصر الحال الذي يسمى المقام. وعني البلاغيون به من خلال العبارة المشهورة: لكل مقام مقال، الذي وردت في بيت الخطيئة¹ يخاطب عمر بن الخطاب².
 تَحَنَّنْ عَلَيَّ هَذَاكَ الْمَلِيكُ فَإِنَّ لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالًا³
 معناه: أحسنْ إليَّ حتى أذكرك في كل مقام بحسن فعلك.⁴ وذهب بشر بن المعتمر⁵ - فيما نقله عنه الجاحظ⁶ - في صحيفته المشهورة (الرسالة) إلى أن: "مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال."⁷

¹ هو أبو مليكة جرجول بن أوس بن مالك، الشاعر المخضرم، كثير المهجاء، من فحول الشعراء، توفي ٣٥هـ أو ٤٥هـ. ينظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي توفي ٧٤٨هـ، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، (دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٣م)، ٢: ١٨٦

² هو أبو حفص عمر بن الخطاب القرشي العدوي، الملقب بالفاروق، ثاني الخلفاء الراشدين ومن كبار أصحاب الرسول، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، توفي ٢٣هـ. ينظر: الطبقات الكبرى: أبو عبد الله محمد بن سعد توفي ٢٣٠هـ، تحقيق: محمد عبد القادر عطاء، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)، ٣: ٢٠١. وتاريخ الإسلام: ٢: ١٣٨

³ ديوان الخطيئة، دراسة وتبويب: د. مفيد محمد قميحة، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٣م)، ١٤٤

⁴ مجمع الأمثال: أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري توفي ٥١٨هـ، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (بيروت، لبنان: دار المعرفة، ب.ت)، ٢: ١٩٨

⁵ هو العلامة أبو سهل بشر بن المعتمر الكوفي البغدادي، شيخ المعتزلة، وصاحب التصانيف، من الأصوليين الكبار، راوية للشعر والأخبار وشاعر، توفي ٢١هـ. ينظر: تاريخ الإسلام: ٥: ٤٠

⁶ هو الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر البصري المعتزلي، العلامة، المتبحر، ذو الفنون، تصانيفه كثيرة جداً ومنها: البيان والتبيين، والبلاء، وغيرها. توفي ٢٥٥هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء: شمس الدين الذهبي، (القاهرة، دار الحديث: ١٤٢٧هـ)، ١١: ٥٢٧

⁷ البيان والتبيين: الجاحظ، تحقيق: الحامي فوزي عطوي، (بيروت: دار صعب، ط ١، ١٩٦٨م)، ١: ٨٦

"رعاية أحوال المخاطبين في الخطاب النبوي - أزواج النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً"

وهو الأمر الذي يوضحه الجاحظ بقوله: "وينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً ولكل حالة من ذلك مقاماً حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات."⁸

ونقل الجاحظ عن ابن المقفع⁹ قوله: "إذا أعطيت كل مقام حقه، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام، فلا تهتم لما فاتك من رضا الحاسد والعدو..."¹⁰ وقد استمر المفهوم نفسه لمقولة "لكل مقام مقال" عند الخطيب القزويني¹¹ الذي ذهب إلى أن: "بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته ومقتضى الحال مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام التنكير يبين مقام التعريف، ومقام الإطلاق يبين مقام التقييد، ومقام التقليل يبين مقام التأخير، ومقام الذكر يبين مقام الحذف، ومقام القصر يبين مقام خلافه، ومقام الفصل يبين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يبين مقام الإطناب والمساواة، وكذا خطاب الذكي يبين خطاب الغبي، وكذا لكل كلمة مع صاحبها مقام."¹²

يعني أنّ لكل كلمة كالفعل مثلاً مع صاحبها كإن الشرطية مثلاً مقاماً، وهو الشك في وقوعه، ليس هذا المقام للكلمة الأخرى، فمقام الفعل باقتزان أداة الشرط (إن) يختلف عن مقامه مع أداة الشرط (إذا)، مقام (إن) يقتضي الشرط، ومقام (إذا) يقتضي التحقيق بحصول الشيء. تشترك أدوات الشرط (إن) و(إذا) في أصل المعنى وهو الشرط لكن تختلف من حيث المقام.

كذا لكل كلمة من أدوات الشرط مع الماضي مقام، ليس لها مع المضارع. ففي الماضي مقامها إظهار الوقوع، وفي المضارع إظهار الاستمرار والتجدد. هكذا لكل كلمة مع صاحبها مقام. وقد جعل القزويني "مطابقة الكلام لمقتضى الحال" منبعاً ومصدراً للبلاغة.

⁸ البيان والتبيين: ١: ١٣٨

⁹ هو أبو محمد عبدالله روزبه بن داؤدويه المشتهر بلقب ابن المقفع، أحد البلغاء والفصحاء، ورأس الكتاب، وأولي الإنشاء، من أهل فارس، له مؤلفات كثيرة، توفي ١٤٢هـ. ينظر: سير أعلام النبلاء: ٦: ٣٣٢

¹⁰ البيان والتبيين: ١: ١١٦

¹¹ هو قاضي القضاة محمد بن عبد الرحمن بن عمر، جلال الدين القزويني، أشهر مؤلفاته تلخيص المفتاح في المعاني والبيان، والإيضاح في شرح التلخيص. توفي ٧٣٩هـ. ينظر: الوافي بالوفيات: صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي توفي ٧٦٤هـ، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركبي مصطفى، (بيروت: دار إحياء التراث، ١٤٢٠هـ)، ١٨: ٢٤٠

¹² الإيضاح في علوم البلاغة: جلال الدين الخطيب القزويني توفي ٧٣٩هـ، (بيروت: دار إحياء العلوم، ١٩٩٨م)، ١٣،

والحال هو: " الأمر الداعي للمتكلّم إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما، وهو مقتضى الحال ، مثلا كون المخاطب منكراً للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم، والتأكيد مقتضى الحال، وقولك: إن زيداً في الدار مؤكداً بأن الكلام مطابق لمقتضى الحال." ¹³

رعاية النبي الكريم ﷺ أحوال زوجاته:

إن مدار البلاغة على رعاية الكلام لمقتضى الحال ، ورعاية حال المخاطب هو عنصر مهم في إنشاء الخطاب البليغ، وكان النبي الكريم ﷺ أبلغ العرب وأفصحهم لساناً، وأوضحهم بياناً، وأعذبهم نطقاً، وأعرفهم بمواقع الخطاب وأحوال المخاطبين. يلحظ في خطابه عليه ﷺ للمخاطبين على تنوعهم ما يدل على رعايته لطبيعتهم.

لم يكن خطاب النبي الكريم ﷺ موجهاً للرجال فقط، بل كان موجهاً للنساء أيضاً، كان حريصاً على أن يعامل رجال أمته زوجاتهم يمثل ما يعامل به زوجاته، ويتضح في خطابه الخاص بزواجه أنه كان مراعيًا أحوالهن من خلال زمن التخاطب ومكانه. وقد ورد في الأحاديث النبوية من ذلك ما يؤكد هذه الرعاية في خطاباته المتنوعة وفقاً لمقتضى الحال، ومنها:

أ- مراعاة أحوالهن في مقام الرحمة والعطف:

الحديث الأول: روي عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

خَرَجْنَا لَا نَرَى إِلَّا الْحُجَّ فَلَمَّا كُنَّا بِسَرَفٍ حِصْنٌ فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أَبْكِي قَالَ: (مَا لَكِ؟ أَنْفَسْتِ؟) قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: (إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ فَأَقْضِي مَا يَقْضِي الْحُجَّ غَيْرَ أَنْ لَا تَطُوفِي بِالنَّبِيِّتِ). ¹⁴

¹³ شروح التلخيص: (مجموعة شروح التلخيص يشتمل على خمسة كتب: في صلب المجموعة ثلاثة كتب وهي على الترتيب: مختصر العلامة سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني، ومواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح لابن يعقوب المغربي، وعروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح لبهاء الدين السبكي. وفي الهامش كتابين، وهما على الترتيب: الإيضاح للخطيب القزويني صاحب تلخيص المفتاح، وحاشية الدسوقي على الشرح المختصر للسعد التفتازاني)، (بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية، ب.ت)، ١٢٢: ١٢٣ -

¹⁴ صحيح البخاري: كتاب: الحيض، باب: الأمر بالنساء إذا نفسن، حديث: ٢٩٤، باب: تَقْضِي الْحَائِضُ الْمَنَاسِكَ كُلَّهَا إِلَّا الطَّوْفَ بِالنَّبِيِّتِ، حديث: ٣٠٥، كتاب: الأضاحي، باب: الْأُضْحِيَّةُ لِلْمُسَافِرِ وَالنِّسَاءِ، حديث: ٥٥٤٨، باب: مَنْ دَبَّحَ ضَحِيَّةً غَيْرَهُ، حديث: ٥٥٥٩.

"رعاية أحوال المخاطبين في الخطاب النبوي - أزواج النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً"

في هذا الحديث كان سؤال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم: (مَا لَكَ؟ أَتُفْسِتُ؟) أي: حضت، بما يناسب حالها لأنها ظنت أن الحيض يمنع الحج فبكت، فاستفهم بمزمة الاستفهام لطلب التصديق عن الثبوت أو الانتفاء، وفي رواية: (لَعَلَّكَ تُفْسِتُ؟)¹⁵ بصورة الترجي توقعاً لحصول الأمر، فأجابت عائشة رضي الله عنها بنعم، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ)، في رواية: (فَإِنَّ ذَلِكَ شَيْءٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ)¹⁶ مؤكداً بـ(إِنَّ)، (هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ)¹⁷ بتعبير جملة اسمية - وهي من المؤكدات - فجاء بهذه الأساليب مؤكداً مراعاة حال المخاطبة ليسليها، ويعطف عليها، ويواسيها عند بكائها، ويراعي حالتها النفسية فيخاطبها بما يقتضي ذلك..

الحديث الثاني: روي عن أنس رضي الله عنه¹⁸، قال:

كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم عِنْدَ بَعْضِ نِسَائِهِ، فَأَرْسَلَتْ إِحْدَى أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ بِصَحْفَةٍ¹⁹ فِيهَا طَعَامٌ، فَضَرَبَتْ الَّتِي النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فِي يَدِهَا يَدَ الْخَادِمِ، فَسَقَطَتِ الصَّحْفَةُ فَأَتَقَلَقْتُ، فَجَمَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَلَقَّ²⁰ الصَّحْفَةَ، ثُمَّ جَعَلَ يَجْمَعُ فِيهَا الطَّعَامَ الَّذِي كَانَ فِي الصَّحْفَةِ، وَيَقُولُ: (غَارَتْ أُمُّكُمْ) ثُمَّ حَبَسَ الْخَادِمَ حَتَّى أَتَى بِصَحْفَةٍ مِنْ عِنْدِ الَّتِي هُوَ فِي يَدِهَا، فَدَفَعَ الصَّحْفَةَ الصَّحِيحَةَ إِلَى الَّتِي كُسِرَتْ صَحْفَتُهَا، وَأَمْسَكَتِ الْمَكْسُورَةَ فِي يَدِهَا الَّتِي كُسِرَتْ.²¹

سياق الحديث يبين أنه صلى الله عليه وسلم لم يعاتب زوجته على ذلك الفعل، بل قال: (غَارَتْ أُمُّكُمْ)، ولم يزد عليه، ولم يؤاخذ هذه الغيرة بما يصدر منها. التعبير بهذه الجملة وما وراءها من إجلال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم

¹⁵ صحيح البخاري: كتاب: الحيض، باب: تَقْضِي الْحَائِضُ الْمَنَاسِكَ كُلَّهَا إِلَّا الطَّوْفَ بِالْبَيْتِ، حديث: ٣٠٥

¹⁶ صحيح البخاري: كتاب: الحيض، باب: تَقْضِي الْحَائِضُ الْمَنَاسِكَ كُلَّهَا إِلَّا الطَّوْفَ بِالْبَيْتِ، حديث: ٣٠٥

¹⁷ صحيح البخاري: كتاب: الأصاحي، باب: مَنْ ذَبَحَ صَحْفَةً غَيْرَهُ، حديث: ٥٥٥٩

¹⁸ هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم أبو حمزة الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل، خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين.

توفي ٩٢هـ أو ٩٣هـ. ينظر: الطبقات الكبرى: ٧: ٣٢

¹⁹ الصفحة: إناء كالقصة، والجمع الصحف. المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ت نحو ٧٧٠هـ، بيروت: المكتبة العلمية، ب. ت، مادة: ص ح ف.

²⁰ فلق، جمع الفلقة من الشيء - : القطعة منه. جمهرة اللغة: ابن دريد، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، بيروت: دار العلم للملايين، ط ١، ٩٨٧م، مادة: ف ل ق.

²¹ صحيح البخاري: كتاب: النكاح، باب: العيرة، حديث: ٥٢٢٥، كتاب: المظالم، باب: إِذَا كَسَرَ قَصْعَةً أَوْ شَيْئًا لِعِيْرِهِ،

حديث: ٢٤٨١

وإعظامه يقتضي الصفح والتسامح عما بدا منها من الغيرة، ثم ما في الإضافة من التحنن والتودد في التعبير المعدول بضمير المفرد إلى التعبير بضمير الجمع لمقتضى الحال. وفي هذا العلول قال الإمام الطيبي²²: "الخطاب عام لكل من سمع بهذه القضية من المؤمنين، اعتذاراً منه ﷺ لئلا يحملوا صنعها علي ما يذم." ²³

الحديث الثالث: روي عن هشام بن عروة رضي الله عنهما²⁴، قال:

كَانَ النَّاسُ يَتَحَرَّوْنَ بِحَدَايَاهُمْ يَوْمَ عَائِشَةَ قَالَتْ عَائِشَةُ: فَاجْتَمَعَ صَوَاحِبِي إِلَى أُمِّ سَلَمَةَ²⁵ فَقُلْنَ: يَا أُمُّ سَلَمَةَ وَاللَّهِ إِنَّ النَّاسَ يَتَحَرَّوْنَ بِحَدَايَاهُمْ يَوْمَ عَائِشَةَ وَأَنَا تُرِيدُ الْحَيَّرَ كَمَا تُرِيدُ عَائِشَةُ فَمُرِّي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَأْمُرَ النَّاسَ أَنْ يُهْلِكُوا إِلَيْهِ حَيْثُ مَا كَانَ أَوْ حَيْثُ مَا دَارَ. قَالَتْ: فَذَكَرْتُ ذَلِكَ أُمُّ سَلَمَةَ لِلنَّبِيِّ قَالَتْ: فَأَعْرَضَ عَنِّي فَلَمَّا عَادَ إِلَيَّ ذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ فَأَعْرَضَ عَنِّي فَلَمَّا كَانَ فِي الثَّالِثَةِ ذَكَرْتُ لَهُ فَقَالَ: (يَا أُمُّ سَلَمَةَ لَا تُؤْذِنِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُمْ غَيْرَهَا).²⁶

سياق الحديث يشير إلى غيرة نساء النبي الكريم ﷺ على قضية إهداء الناس إليه يوم عائشة رضي الله عنها، وإعراضه عنهن في مقام الرفق، لم يؤاخذهن ولم يعاتبهن على هذا بل اختار السكوت، فاكتمى بهذا التوجيه: (يَا أُمُّ سَلَمَةَ لَا تُؤْذِنِي فِي عَائِشَةَ فَإِنَّهُ وَاللَّهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُمْ غَيْرَهَا) لما أذية من كلامها، نهاها بصيغة النهي الصريحة (لَا تُؤْذِنِي) عن الأذى في حق عائشة رضي الله عنها، ثم أكد النبي ﷺ لأُم سلمة رضي الله عنها بعدة مؤكدات: الخبر (إِنَّ)، وضمير الشأن في (إِنَّهُ)، والقسم (وَاللَّهِ) ليقرر فضل عائشة رضي الله عنها في نفسها. وفي رواية: (لَا تُؤْذِنِي فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ، إِلَّا عَائِشَةَ)²⁷.

²² هو حسين بن محمد بن عبد الله الطيبي الإمام المشهور صاحب شرح المشكاة وحاشية الكشاف وغيرهما توفي ٧٤٣هـ.

ينظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، (حيدر آباد الهند: مجلس دائرة المعارف العثمانية، ط ٢، ١٣٩٢هـ)، ٢: ١٨٦.

²³ شرح الطيبي على مشكاة المصابيح: العلامة شرف الدين الطيبي، تحقيق: الدكتور عبد الحميد الهنداوي، (الرياض، مكة المكرمة، السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط ١، ١٩٩٧م)، ٧: ٢١٨٩.

²⁴ هو هشام بن عروة بن الزبير بن العوام، أبو المنذر، كان ثقة ثبتاً كثير الحديث حجة، توفي ١٤٦هـ أو ١٤٥هـ. ينظر: الطبقات الكبرى: ٥: ٣٧٥.

²⁵ هي أم سلمة اسمها هند بنت أبي أمية، تزوجها أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد، جرح في غزوة أحد فمات، وبعده تزوجها رسول الله، توفيت ٥٩هـ. ينظر: الطبقات الكبرى: ٨: ٦٩.

²⁶ صحيح البخاري: كتاب: فضائل أصحاب النبي، باب: فَضْلُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حديث: ٣٧٧٥.

²⁷ صحيح البخاري: كتاب: الهبة وفضلها والتحريض عليها، باب: مَنْ أَهْدَى إِلَى صَاحِبِهِ وَتَحَرَّى بَعْضُ نِسَائِهِ دُونَ بَعْضٍ، حديث: ٢٥٨١، ٢٥٨٠، باب: قُبُولُ الْهَدِيَّةِ، حديث: ٢٥٧٤.

"رعاية أحوال المخاطبين في الخطاب النبوي - أزواج النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً"

هنا أكد بأسلوب الاستثناء من النفي لكونه في مقام إنكار على أم سلمة رضي الله عنها في أمر لا يتعلق بالعدل بين النساء، ويبيّن فضل عائشة رضي الله عنها دفاعاً عنها ليؤكد تفرداً بما لم يبلغه من فضل.

الحديث الرابع: روي عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ²⁸ وَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلًا، فَتَوَاصَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ²⁹ أَنْ أَتَيْنَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلْتَقُلْ: إِيَّيْ أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرٍ³⁰، أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ فَدَخَلَ عَلَى إِخْدَاهُمَا، فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ، فَقَالَ: (لَا، بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَلَكِنْ أَغُودَ لَهُ) فَتَزَلَّتْ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ...﴾ إِلَى ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ...﴾³¹، لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ، ﴿وَإِذْ أَسْرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ...﴾، لِقَوْلِهِ (بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا).³²

في هذا الموقف قوله صلى الله عليه وسلم: (لَا، بَلْ شَرِبْتُ عَسَلًا عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ، وَلَكِنْ أَغُودَ لَهُ)، يفيد أنه لم يكن ما سألت نساؤه، فيه بحذف همزة الاستفهام: أَكَلْتَ مَغَافِيرَ؟ فسؤال بلا أداة كأنه خبر متحقق لإشعاره براءتها، ولم يكتف على نفي أكل المغافير (لَا)، بل صدق وصرح أصل القضية بصيغة الماضي لدلالة تحققها، وزاد بحلف على عدم الرجوع لشرب العسل، وفي رواية زيادة، قال: (لَا تُخْبِرِي بِذَلِكَ أَحَدًا).³³ لعله قصد بهذا النهي أن لا ينكسر خاطر زوجته التي شرب العسل عندها.

²⁸ هي زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين، بنت عمه النبي، كانت تحت زيد بن حارثة مولى النبي صلى الله عليه وسلم فطلقها وتزوجها رسول الله، توفيت ٢٠هـ. ينظر: الطبقات الكبرى: ٨: ٩٠ - ٨٠.

²⁹ هي حفصة بنت عمر بن الخطاب أم المؤمنين، وكانت تحت خنيس بن حذافة، شهد بدرًا وتوفي، فتزوجها رسول الله، توفيت ٤١هـ أو ٤٥هـ. ينظر: الطبقات الكبرى: ٨: ٦٥.

³⁰ مغافير: صمغ يسيل من شجر العرفط خلّو، غير أن رائحته ليست بطيبة... وهو حلّو يؤكل، واحدها مُغْفور. تحذیب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهری توفي ٣٧٠هـ، تحقيق: محمد عوض مرعب، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط ١، ٢٠٠١م)، مادة: غ ف ر.

³¹ التحريم: ٤.

³² صحيح البخاري: كتاب: الطلاق، باب: لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ، حديث: ٥٢٦٧، كتاب: الإيمان والنذور، باب: إِذَا حَرَّمَ طَعَامُهُ، حديث: ٦٦٩١.

³³ صحيح البخاري: كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَرْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ التحريم، حديث: ٤٩١٢.

الحديث الخامس: رُوي عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ الْعَسَلَ وَالْخُلُوءَ وَكَانَ إِذَا انْصَرَفَ مِنَ الْعَصْرِ دَخَلَ عَلَى نِسَائِهِ، فَيَدْنُو مِنْ إِحْدَاهُنَّ، فَيَدْخُلُ عَلَى حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ فَاحْتَبَسَ أَكْثَرَ مَا كَانَ يَحْتَبِسُ، فَعَزَّتْ، فَسَأَلَتْ عَنْ ذَلِكَ، فَقِيلَ لِي: أَهَدَتْ لَهَا امْرَأَةً مِنْ قَوْمِهَا عَكَّةً³⁴ مِنْ عَسَلٍ، فَسَقَتِ النَّبِيَّ ﷺ مِنْهُ شَرْبَةً، فَقُلْتُ: أَمَا وَاللَّهِ لَنَحْتَالَنَّ لَهُ، فَقُلْتُ لِسُودَةَ بِنْتِ زَمْعَةَ³⁵: إِنَّهُ سَيَدْنُو مِنْكَ فَإِذَا دَنَا مِنْكَ فَقُولِي: أَكَلْتُ مَغَافِيرَ فَإِنَّهُ سَيَقُولُ لَكَ: لَا، فَقُولِي لَهُ: مَا هَذِهِ الرِّيحُ الَّتِي أَجِدُ مِنْكَ؟ فَإِنَّهُ سَيَقُولُ لَكَ: سَقَنْتِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ، فَقُولِي لَهُ: جَرَسَتْ نُحْلَةُ الْعُرْفُطِ³⁶، وَسَأَقُولُ ذَلِكَ، وَقُولِي أَنْتِ يَا صَفِيَّةُ³⁷ ذَلِكَ، قَالَتْ: تَقُولُ سُودَةُ: قَوْلَ اللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ قَامَ عَلَى الْبَابِ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَبَادِيَهُ بِمَا أَمَرْتَنِي بِهِ فَرَقًا مِنْكَ، فَلَمَّا دَنَا مِنْهَا قَالَتْ لَهُ سُودَةُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكَلْتُ مَغَافِيرَ؟ قَالَ: (لَا) قَالَتْ: فَمَا هَذِهِ الرِّيحُ الَّتِي أَجِدُ مِنْكَ؟ قَالَ: سَقَنْتِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ، فَقَالَتْ: جَرَسَتْ نُحْلَةُ الْعُرْفُطِ، فَلَمَّا دَارَ إِلَيَّ قُلْتُ لَهُ نَحْوَ ذَلِكَ، فَلَمَّا دَارَ إِلَيَّ صَفِيَّةُ قَالَتْ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَلَمَّا دَارَ إِلَيَّ حَفْصَةُ قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَسْقِيكَ مِنْهُ؟ قَالَ: (لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ) قَالَتْ: تَقُولُ سُودَةُ: وَاللَّهِ لَقَدْ حَرَمْنَا، قُلْتُ لَهَا: اسْكُتِي.³⁸

في هذا السياق أيضًا وردت قصة شرب النبي الكريم ﷺ العسل، لكن هنا شرب العسل عند حفصة رضي الله عنها. والجمع بين الحديثين باختلاف المكان أنه لم يغضب على تظاهر الغيرة الطبيعية، بل قصد بترك العسل لأجل رضاهن، فلما سألت حفصة رضي الله عنها: أَلَا أَسْقِيكَ مِنْهُ؟ بأداة تحضيض (ألا) لترغيبه في طلب العسل، فأجاب: (لَا حَاجَةَ لِي فِيهِ)، فإن النبي الكريم عدل عن قول: لا أشربه أو لن أشربه، إلى نفي الحاجة مراعاة لحال المخاطبة لئلا ينجحها.

³⁴ عَكَّة: هي آيَةُ السَّمْنِ وجمعها (عُكَاكٌ) و (عُكَاكٌ). مختار الصحاح: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي توفي ٦٦٦ هـ، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، (بيروت: المكتبة العصرية، الدار النموذجية، صيدا، ط٥، ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م)، مادة: ع ك ك.

³⁵ هي أم المؤمنين سودة بنت زمعة القرشية، تزوجها رسول الله بمكة بعد موت خديجة، وكانت قبل ذلك تحت ابن عم لها، توفيت ٢٣ هـ. ينظر: الطبقات الكبرى: ٨: ٤٢، وتاريخ الإسلام: ٢: ١٦٠.

³⁶ العُرْفُطُ: شجرة قصيرة متدانية الأغصان ذات شوك كثير. تهذيب اللغة: مادة: ع ر ف ط.

³⁷ هي صفية بنت حيي أم المؤمنين، تزوجها سلام القرظي ثم فارقتها فتزوجها كنانة بن الربيع فقتل عنها يوم خيبر. سبأها رسول الله أعتقها ثم تزوجها توفيت ٥٠ هـ أو ٣٦ هـ. ينظر: الطبقات الكبرى: ٨: ٩٥.

³⁸ صحيح البخاري: كتاب: الطلاق، باب: لَمْ تُحَرِّمْ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ، حديث: ٥٢٦٨، كتاب: الحيل، باب: مَا يُكْرَهُ مِنَ الْإِحْتِيَالِ فِي الْبُيُوعِ وَلَا يُتَمَنَّعُ فَضْلُ الْمَاءِ يُتَمَنَّعُ بِهِ فَضْلُ الْكَأَلِ، حديث: ٦٩٧٢، كتاب: النكاح، باب: دُخُولُ الرَّجُلِ عَلَى نِسَائِهِ فِي الْيَوْمِ، حديث: ٥٢١٦.

"رعاية أحوال المخاطبين في الخطاب النبوي - أزواج النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً"

الحديث السادس: رُوي عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ سَفَرًا أَفْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ فَأَيُّتَهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا مَعَهُ، فَأَفْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزَاةٍ غَزَاهَا، فَخَرَجَ سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَهُ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الْحِجَابُ فَأَنَا أُحْمَلُ فِي هَوْدَجٍ وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ غَزَوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلْ وَدَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ آدَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ حِينَ آدَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الْجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى الرَّحْلِ، فَلَمَسْتُ صَدْرِي فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزَعٍ أَظْفَارٍ قَدْ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ، فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْنِعَاؤُهُ، فَأَقْبَلُ الَّذِينَ يَزْحَلُونَ لِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي، فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، فَقَدِمْنَا الْمَدِينَةَ فَاشْتَكَيْتُ بِهَا شَهْرًا وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ مِنْ قَوْلِ أَصْحَابِ الْإِفْكِ وَيَرِينِي فِي وَجْعِي أَنِّي لَا أَرَى مِنَ النَّبِيِّ اللَّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَمْرُضُ إِنَّمَا يَدْخُلُ فَيُسَلِّمُ ثُمَّ يَقُولُ: (كَيْفَ تَيْكُم؟)..... إلخ.³⁹

سياق الحديث في حادثة الإفك - والإفك هو البهتان والزور والافتراء - وفيه اتهمت عائشة رضي الله عنها في عرضها. يوضح أن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يسمع عنها ما يكره لكنه لا يهجرها، ولا يطلّقها، ولا يكلمها عن أي شيء، ولا ينتقصها أثناء المشكلة، بل يقلّل اللطف بها حينما يزورها في مرضها ولكنه رغم ذلك يسأل عن حالها ويطمئن على صحتها، حيث يقول: (كَيْفَ تَيْكُم؟)، لا يقول: كيف حالكِ؟، أو كيف أنت؟ بل يعدل عنه إلى (تيكم) - فهي: " اسم إشارة للمؤنث مثل ذاكم للمذكر في موضع (هذه) " ⁴⁰ - لعلّه اختار هذا الأسلوب لتستشعر منه بعض الجفاء نتيجة لما حدث.

³⁹ صحيح البخاري: كتاب: الشهادات، باب: تَعْدِيلُ النِّسَاءِ بَعْضُهُنَّ بَعْضًا، حديث: ٢٦٦١، كتاب: المغازي، باب: حديث الإفك، حديث: ٤١٤١، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ... ﴾ سورة يوسف، حديث: ٤٦٩٠، باب: ﴿ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا ﴾ إلى ﴿ الْكَذِبُونَ ﴾ النور، حديث: ٤٧٥٠، باب: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُخَيَّبُونَ أَنْ تَشِيْعَ الْفَنَحْشَةُ... وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾، حديث: ٢٧٥٧

⁴⁰ الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية: الجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط ٤، ١٩٧٠م) ١٩٨٧-١٩٨٨، مادة: ت ١.

الحديث السابع: رُوي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما⁴¹، قال:

لَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى أَنْ أَسْأَلَ عُمَرَ⁴² رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ الْمَرَاتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّتَيْنِ قَالَ اللَّهُ هُمَا: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾⁴³، فَحَجَجْتُ مَعَهُ، فَعَدَلْتُ وَعَدَلْتُ مَعَهُ بِالْإِدَاوَةِ⁴⁴، فَتَبَرَّرَ⁴⁵ حَتَّى جَاءَ فَسَكَبْتُ عَلَى يَدَيْهِ مِنَ الْإِدَاوَةِ فَتَوَضَّأَ، فَقُلْتُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَرَاتَيْنِ مِنْ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّتَانِ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هُمَا: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾⁴⁶، فَقَالَ: وَاعْجَبِي لَكَ يَا ابْنُ عَبَّاسٍ، عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ. ثُمَّ اسْتَقْبَلَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْحَدِيثَ يَسْئَلُهُ فَقَالَ: ...، وَكَانَ قَدْ قَالَ: (مَا أَنَا بِدَاخِلٍ عَلَيْهِنَّ شَهْرًا) مِنْ شِدَّةِ مَوْجِدَتِهِ عَلَيْهِنَّ حِينَ عَاتَبَهُ اللَّهُ، فَلَمَّا مَضَتْ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ، فَبَدَأَ بِهَا فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ: إِنَّكَ أَقْسَمْتَ أَنْ لَا تَدْخُلَ عَلَيْنَا شَهْرًا وَإِنَّا أَصْبَحْنَا لِتِسْعٍ وَعِشْرِينَ لَيْلَةً، أَعُدُّهَا عَدًّا. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (الشَّهْرُ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ) وَكَانَ ذَلِكَ الشَّهْرُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَنْزِلَتْ آيَةُ التَّخْيِيرِ⁴⁷ فَبَدَأَ بِأَوَّلِ امْرَأَةٍ، فَقَالَ: (إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا وَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبُوبِكَ) قَالَتْ: قَدْ أَعْلَمْتُ أَنَّ أَبُوبِي لَمْ يَكُنْ يَأْمُرَانِي بِفِرَاقِكَ، ثُمَّ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ قَالَ ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ

⁴¹ هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم، حبر الأمة وفقهها وإمام التفسير وترجمان القرآن، توفي ٦٨ هـ أو ٧٠ هـ.

ينظر: الطبقات الكبرى: ٢: ٢٧٩ - ٢٨٤

⁴² هو أبو حفص عمر بن الخطاب القرشي العدوي، الملقب بالفاروق، ثاني الخلفاء الراشدين ومن كبار أصحاب الرسول، وأحد

العشرة المبشرين بالجنة، توفي ٢٣ هـ. ينظر: الطبقات الكبرى: ٣: ٢٠١، وتاريخ الإسلام: ٢: ١٣٨

⁴³ التحريم: ٤

⁴⁴ هو إناء صغير من جلد يُؤخذ للماء، وجمعها أداوى. النهاية في غريب الحديث والأثر: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير توفي: ٦٠٦ هـ، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي - محمود محمد الطناحي، (بيروت: المكتبة

العلمية، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م)، ١: ٣٦

⁴⁵ أي: خرج إلى البراز للحاجة... والبراز: القضاء الواسع. الصحاح: مادة: ب ر ز.

⁴⁶ التحريم: ٤

⁴⁷ إشارة إلى الأحزاب: ٢٨ - ٢٩

"رعاية أحوال المخاطبين في الخطاب النبوي - أزواج النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً"

الْذُنْيَا وَزَيَّنَتْهَا... فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا⁴⁸ (قُلْتُ: أَيْ هَذَا أَسْتَأْمِرُ أَبَوَيَّ؟ فَإِنِّي أُرِيدُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْذَّارَ الْآخِرَةَ، ثُمَّ خَيَّرَ نِسَاءَهُ، فَقُلْنَ مِثْلَ مَا قَالَتْ عَائِشَةُ⁴⁹).

سياق الحديث في حسن عشرة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لأزواجه بما يدل على تكامل أخلاقه، حيث تظاهر نساؤه عليه - فقد جاء في بعض الروايات، سأل ابن عباس رضي الله عنهما عمر بن الخطاب: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! مَنْ الْمَرَأَتَانِ اللَّتَانِ تَظَاهَرَتَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ فَمَا أَتَمَّمْتُ كَلَامِي حَتَّى قَالَ: عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ⁵⁰ يغاضبه فيقسم أن لا يدخل عليهن شهراً، لم يضرهن، ولم يقل لهن أي لفظ بالتوبيخ أو بالتعنيف غضباً بل يهجرهن لأجله شهراً، ثم يدخل بعد هذه المدة عليهن، وفي بعض الروايات: فَقَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ آلَيْتَ شَهْرًا، فَقَالَ: (إِنَّ الشَّهْرَ تِسْعٌ وَعِشْرُونَ)⁵¹، ثم يختارهن بين

48 الأحزاب: ٢٨ - ٢٩

49 صحيح البخاري: كتاب: المظالم، باب: العُرْفَةُ وَالْعَلِيَّةُ الْمُشْرِفَةُ وَغَيْرُ الْمُشْرِفَةِ فِي السُّطُوحِ وَغَيْرِهَا، حديث: ٢٤٦٨، كتاب: العلم، باب: التَّنَاوُبُ فِي الْعِلْمِ، حديث: ٨٩، كتاب: تفسير القرآن، باب: قَوْلُهُ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ الأحزاب، حديث: ٤٧٨٦، كتاب: اللباس، باب: مَا كَانَ النَّبِيُّ يَتَخَوَّزُ مِنَ اللَّبَاسِ وَالْبُسْطِ، حديث: ٥٨٤٣، كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿تَبَتَّغِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ...﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ لِحَافَةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ التحريم، حديث: ٤٩١٣، كتاب: النكاح، باب: مَوْعِظَةُ الرَّجُلِ ابْنَتُهُ لِحَالِ زَوْجِهَا، حديث: ٥١٩١، كتاب: النكاح، باب: هِجْرَةُ النَّبِيِّ نِسَاءَهُ فِي غَيْرِ بُيُوتِهِنَّ، حديث: ٥٢٠٣

50 صحيح البخاري: كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وَإِذَا أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضُهُمْ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ التحريم، حديث: ٤٩١٤، باب: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا...﴾ التحريم، حديث: ٤٩١٥، باب: ﴿تَبَتَّغِي مَرَضَاتِ أَزْوَاجِكَ...﴾ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ لِحَافَةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ سورة التحريم، حديث: ٤٩١٣، كتاب: النكاح، باب: مَوْعِظَةُ الرَّجُلِ ابْنَتُهُ لِحَالِ زَوْجِهَا، حديث: ٥١٩١

51 صحيح البخاري: ك الصلاة، باب: الصَّلَاةُ فِي السُّطُوحِ وَالْمَنِيرِ وَالْحُشْبِ، حديث: ٣٧٨، كتاب: الصوم، باب: قَوْلُ النَّبِيِّ: (إِذَا رَأَيْتُمُ الْهَالَالَ فَصُومُوا وَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَأَفْطِرُوا)، حديث: ١٩١٠، ١٩١١، كتاب: المظالم، باب: العُرْفَةُ وَالْعَلِيَّةُ الْمُشْرِفَةُ وَغَيْرُ الْمُشْرِفَةِ فِي السُّطُوحِ وَغَيْرِهَا، حديث: ٢٤٦٩، كتاب: النكاح، باب: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿الزَّجَالَ قَوْمَاتٍ عَلَى الْنِسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ... وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاصْرَبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا﴾ النساء، حديث: ٥٢٠١، باب: هِجْرَةُ النَّبِيِّ نِسَاءَهُ فِي

الدنيا والآخرة ويبدأ بعائشة رضي الله عنها قائلاً: (إِنِّي ذَاكِرٌ لَكَ أَمْرًا وَلَا عَلَيْكَ أَنْ لَا تَعْجَلِي حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ).

قوله بصيغة النهي (لَا تَعْجَلِي) مقيد بقوله (حَتَّى تَسْتَأْمِرِي أَبَوَيْكَ) يدل على لطفه بها في طلبه ألا تتعجل حتى تأخذ الأمر من أبيها. وفي رواية: (لَا تَسْتَعْجَلِي)⁵²، من باب استفعال الذي يفيد الطلب، ويقصد بالطلب هنا طلب عدم عجلة في مقام الرفق. فلم يغلظ في القول مراعاة لحالتها النفسية في مقام الشفقة لها.

ب- رعاية أحوالهن في مقام الموانسة والمودة:

الحديث الأول: روي عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (إِنِّي لَأَعْلَمُ إِذَا كُنْتُ عَنِّي رَاضِيَةً، وَإِذَا كُنْتُ عَلَيَّ غَضَبِي) قَالَتْ: فَقُلْتُ: مِنْ أَيْنَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ: (أَمَّا إِذَا كُنْتُ عَنِّي رَاضِيَةً فَإِنَّكَ تَقُولِينَ: لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ، وَإِذَا كُنْتُ عَلَيَّ غَضَبِي قُلْتُ: لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ) قَالَتْ: قُلْتُ: أَحَلَّ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ.⁵³

كان النبي الكريم ﷺ يراعي مشاعر زوجاته ويعرف مواطن أحاسيسهن عند الغضب والرضا، كما خاطب السيدة عائشة رضي الله عنها هنا مؤكدا خطابه بأن ولام التأكيد، ويفهم نفسيتهن كما فهم من قول عائشة رضي الله عنها (لَا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ) - وقعت جواباً عن كلام سابق - بحرف النفي والقسم أنها راضية، ومن قولها: (لَا وَرَبِّ إِبْرَاهِيمَ)، أنها غاضبة. ثم هي تعبر عن قوة حبها له ﷺ بالقسم والقصر، فتقول: " مَا أَهْجُرُ إِلَّا اسْمَكَ " إظهاراً لقوة حبها له ﷺ، وأنها لا تهجر إلا اسمه.

عَنْ يَبُوتَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، حَدِيث: ٥٢٠٢، كتاب: الطلاق، باب: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ البقرة، حديث: ٥٢٨٩، كتاب: الإيمان والندور، باب: مَنْ خَلَفَ أَنْ لَا يَدْخُلَ عَلَى أَهْلِهِ شَهْرًا وَكَانَ الشَّهْرُ تِسْعًا وَعِشْرِينَ، حديث: ٦٦٨٤

⁵² صحيح البخاري: كتاب: تفسير القرآن، باب: قَوْلُهُ ﴿يَتَأْتِيَ النَّبِيَّ قُلٌّ لِّأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا فَتَعَالَى أَمَتُكُمْ وَأَسْرَحُكُمْ سَرَّاحًا حَمِيلًا﴾ الأحزاب، حديث: ٤٧٨٥

⁵³ صحيح البخاري: كتاب: النكاح، باب: غَيْرَةُ النِّسَاءِ وَوَجْدِهِنَّ، حديث: ٥٢٢٨، كتاب: الأدب، باب: مَا يَجُوزُ مِنَ الْمِجْزَانِ لِمَنْ غَضَى، حديث: ٦٠٧٨

"رعاية أحوال المخاطبين في الخطاب النبوي - أزواج النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً"

الحديث الثاني: رُوي عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

جَلَسَ إِحْدَى عَشْرَةَ امْرَأَةً فَتَعَاهَدَنَ وَتَعَاهَدْنَ أَنْ لَا يَكْتُمَنَّ مِنْ أَخْبَارِ أَزْوَاجِهِنَّ شَيْئًا، قَالَتْ
الْأُولَى: وَقَالَتْ الْحَادِيَّةُ عَشْرَةَ: زَوْجِي أَبُو زَرْعٍ وَمَا أَبُو زَرْعٍ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:
(كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ زَرْعٍ).⁵⁴

سياق الحديث في حسن معاملته صلى الله عليه وسلم مع زوجته ، كان يجلس معها ويؤانسها بالمحادثة
وبإعلان محبته، ويستمع إلى القصة الطويلة بالإصغاء، ويصرح بحبه إياها قائلاً: (كُنْتُ لَكَ كَأَبِي زَرْعٍ لِأُمِّ
زَرْعٍ)، بتشبيه حاله معها كحال أبي زرع مع أم زرع في حبها ووفائها وإكرامها، لا في كل شيء، حيث
طلق أبو زرع أم زرع.

الحديث الثالث: رُوي عن عبد الله بن كعب بن مالك⁵⁵، قال:

سَمِعْتُ أَبِي كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ وَهُوَ أَحَدُ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ تَيْبَ عَلَيْهِمْ أَنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ قَطُّ غَيْرَ غَزَوَتَيْنِ غَزَاةَ الْعُسْرَةِ وَغَزَاةَ بَدْرٍ، قَالَ: ... فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَوْبَتَنَا
عَلَى نَبِيِّهِ حِينَ بَقِيَ الثُّلُثُ الْآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ أُمِّ سَلَمَةَ وَكَانَتْ أُمُّ سَلَمَةَ مُحْسِنَةً فِي
شَأْنِي مَعْنِيَةً فِي أَمْرِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يَا أُمُّ سَلَمَةَ تَيْبَ عَلَى كَعْبٍ)، قَالَتْ: أَفَلَا أُرْسِلُ إِلَيْهِ
فَأُبَشِّرُهُ؟ قَالَ: (إِذَا يَخْطَمَكُمُ النَّاسُ فَيَمْنَعُونَكُمْ النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلِ) ... إلخ.⁵⁶

سياق الحديث في قصة الثلاثة الذين تيب عليهم عندما تخلّفوا عن غزوة تبوك، فأنزل الله
توبتهم على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وهو عند أم سلمة رضي الله عنها، فأخبرها بذلك، فأرادت أن
ترسل هذه البشري إلى كعب، فقال النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لها: (إِذَا يَخْطَمَكُمُ النَّاسُ فَيَمْنَعُونَكُمْ
النَّوْمَ سَائِرَ اللَّيْلِ)، التعبير بـ(إذا) - ظرف لما يستقبل من الزمان يتضمن معنى الشرط - يريد به
عدم ازعاجها في مقام الشفقة.

⁵⁴ صحيح البخاري: كتاب: النكاح، باب: حُسْنِ الْمَعَاشَرَةِ مَعَ الْأَهْلِ، حديث: ٥١٨٩

⁵⁵ هو عبد الله بن كعب بن مالك السلمي الأنصاري المدني، من قراء الأنصار، كان ثقة، وله أحاديث، توفي ٩٨ أو ٩٧ هـ.
ينظر: التاريخ الكبير: محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله الإمام البخاري ٢٥٦ هـ، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، (حيدر آباد،
الذكن: دائرة المعارف العثمانية، ب.ت)، ٥: ١٧٨

⁵⁶ صحيح البخاري: كتاب: تفسير القرآن، باب: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا

رَحَبَتْ ...﴾ التوبة، حديث: ٤٦٧٧

الحديث الرابع: رُوي عن عائشة رضي الله عنها ، قالت:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا: (يَا عَائِشَ هَذَا جَبْرِيْلُ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ)، فَقُلْتُ: وَعَلَيْهِ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، تَرَى مَا لَا أَرَى، تُرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. ⁵⁷

من صور ملاطفة النبي الكريم ﷺ أنه ينادي عائشة رضي الله عنها: (يَا عَائِشَ)، بأحب الأسماء إليها، أو بتصغير اسمها للتمليح، أو بترخيمه يعني تسهيله وتليينه. كل هذا كان في مقام التلطّف والمؤانسة والمودة.

ج - رعاية أحوالهن في مقام الترويح والترفيه:

الحديث الأول: رُوي عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

وَكَانَ يَوْمَ عِيدٍ يَلْعَبُ السُّودَانُ بِالْذَّرَقِ وَالْحِرَابِ فِيمَا سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَإِنَّمَا قَالَ: (تَشْتَهَيْنَ تَنْظُرِينَ؟)، فَقُلْتُ: نَعَمْ. فَأَقَامَنِي وَرَأَهُ خَدِّي عَلَى خَدِّهِ وَهُوَ يَقُولُ: (دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفَدَةَ) حَتَّى إِذَا مَلِئْتُ، قَالَ: (حَسْبُكَ؟) قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: (فَادْهِي). ⁵⁸

قول النبي الكريم ﷺ: (تَشْتَهَيْنَ تَنْظُرِينَ؟) بحذف أداة الاستفهام يظهر بصورة الخبر بمعنى الاستفهام لعله يدرك حرص عائشة رضي الله عنها ورغبتها في النظر إلى اللعب. ثم قيامه ﷺ معها وخدها على خده، ثم حثه عليه وسلم السودان أي الحبشة على اللعب بقوله: (دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفَدَةَ) باسم فعل أمر (دونكم) بمعنى: الزموه، ويندائه (يا بني أرفدة) بلقبهم إظهاراً للطفه لاستمرار اللعب.

ثم قوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: (حَسْبُكَ؟) بحذف أداة الاستفهام، كأنه خبر يحصل، لكونه يشعر بمللها وتعبها، أي: أنه لم يتعب النبي الكريم ﷺ حتى تسأم هي. كما في بعض الروايات: حَتَّى أَكُونَ أَنَا الَّتِي أُسَامُ فَأَفْذَرُوا قَدَرَ الْجَارِيَةِ الْحَدِيثَةِ السَّنِّ الْحَرِيصَةِ عَلَى اللَّهِ. ⁵⁹ كل هذا يدل على أنه كان يراعي مشاعر زوجاته، ويؤانسهن، ويروح عنهن.

⁵⁷ صحيح البخاري: كتاب: فضائل أصحاب النبي ، باب: فَضْلُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حديث: ٣٧٦٨، كتاب: الأدب، باب: مَنْ دَعَا صَاحِبَةً فَتَقَصَّ مِنْ اسْمِهِ خَرْفًا، حديث: ٦٢٠١

⁵⁸ صحيح البخاري: كتاب: العيدين، باب: الْحِرَابِ وَالْذَّرَقِ يَوْمَ الْعِيدِ، حديث: ٩٥٠، كتاب: الجهاد والسير، باب: الذَّرَقِ، حديث: ٢٩٠٧

⁵⁹ صحيح البخاري: كتاب: النكاح، باب: نَظَرُ الْمَرْأَةِ إِلَى الْحَبَشِ وَنَحْوِهِمْ مِنْ غَيْرِ رِبَّةٍ، حديث: ٥٢٣٦، باب: حُسْنِ الْمُعَاشَرَةِ مَعَ الْأَهْلِ، حديث: ٥١٩٠

"رعاية أحوال المخاطبين في الخطاب النبوي - أزواج النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً"

الحديث الثاني: رُوي عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدِي جَارِيتَانِ تُغْنِيَانِ بَغْنَاءَ بُعَاثَ⁶⁰، فَاضْطَجَعَ عَلَى الْفِرَاشِ، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ، وَدَخَلَ أَبُو بَكْرٍ⁶¹، فَأَنْتَهَرَنِي وَقَالَ: مَرْمَارَةُ الشَّيْطَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: (دَعُوهُمَا)، فَلَمَّا عَقَلَ عَمَزَتْهُمَا فَخَرَجَتَا.⁶²

يوضح هذا الحديث أنه كانت هناك جارتان تغنيان عند عائشة رضي الله عنها بغناء بعث - هو أشعار من فخر أو هجاء ونحوه - وفي رواية: وَلَيْسَتْ بِمُعْنِيَتَيْنِ⁶³. وفي رواية: وَعِنْدَهَا قَيْتَانِ⁶⁴، فدخل النبي الكريم ﷺ، واضطجع، وحول وجهه، ولم يقل شيئاً. فلما دخل أبو بكر رضي الله عنه على عائشة رضي الله عنها زجرها. لكن قال النبي الكريم ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: (دَعُوهُمَا)، بصيغة الأمر، وقوله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه يؤكد السماح بسماع هذا الغناء، وفي رواية أن النبي الكريم ﷺ قال: (يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا)⁶⁵، وفي رواية ثانية: (دَعُوهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ، إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَإِنَّ عِيدَنَا هَذَا الْيَوْمَ)⁶⁶، وفي رواية ثالثة: (دَعُوهُمَا يَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّهَا أَيَّامٌ عِيدٍ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ أَيَّامُ مَنِيَّ)⁶⁷، بعدة أساليب: أسلوب النداء، وأسلوب الأمر والخبر التوكيدي التي تفيد التلطف، لإظهار الإقرار بهذا الغناء ببيان

⁶⁰ يوم بعث يوم مشهور من أيام العرب كانت فيه مقتلة عظيمة للأوس على الخزرج. ينظر: تاريخ الإسلام: ١: ٤٢٩

⁶¹ اسمه عبد الله بن أبي قحافة، أول من أسلم من الرجال، وأول الخلفاء الراشدين، توفي سنة ثلاث عشرة، ودفن في حجرة عائشة ورأسه بين كفي رسول الله. ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر توفي ٤٤٣هـ، تحقيق: علي محمد البجاوي، (بيروت: دار الجيل، ط ١، ١٤١٢هـ)، ٤: ١٤١٤

⁶² صحيح البخاري: كتاب: العيدين، باب: الحِرَابِ وَالذَّرَقِ يَوْمَ الْعِيدِ، حديث: ٩٤٩، كتاب: الجهاد والسير، باب: الذَّرَقِ، حديث: ٢٩٠٦

⁶³ صحيح البخاري: كتاب: العيدين، باب: سُنَّةُ الْعِيدَيْنِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، حديث: ٩٥٢. في قولها (وَلَيْسَتْ بِمُعْنِيَتَيْنِ) قال القاضي عياض: ليستا ممن يغني بما جرت به عادة المغنيات من التشويق والهوى والتعريض بالفواحش والتشبيب بأهل الجمال مما يحرك النفوس، ويبعث الهوى والغزل. إكمال المعلم بفوائد المسلم: أبو الفضل القاضي عياض، تحقيق: د. يحيى إسماعيل، (المنصورة: دار الوفاء، ط ١، ١٩٩٨م)، ٣: ٣٠٦

⁶⁴ صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الْمَدِينَةِ، حديث: ٣٩٣١

⁶⁵ صحيح البخاري: كتاب: العيدين، باب: سُنَّةُ الْعِيدَيْنِ لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، حديث: ٩٥٢

⁶⁶ صحيح البخاري: كتاب: مناقب الأنصار، باب: مَقْدَمِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الْمَدِينَةِ، حديث: ٣٩٣١

⁶⁷ صحيح البخاري: كتاب: العيدين، باب: إِذَا قَاتَهُ الْعِيدُ يُصَلِّي رُكْعَتَيْنِ وَكَذَلِكَ النِّسَاءُ وَمَنْ كَانَ فِي الْبُيُوتِ وَالْقُرَى،

حديث: ٩٨٧، كتاب: المناقب، باب: قِصَّةِ الْحَبَشِ وَقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَا بَنِي أَرْفَدَةَ)، حديث: ٣٥٢٩

العلّة، ولم يغضب على الجاريتين ولا على عائشة رضي الله عنها، بل تركهن في الغناء لتأخذن الراحة والسرور بسماع الغناء في يوم العيد.

في رواية ، قالت عائشة رضي الله عنها: أَنَّهَا زَفَّتْ امْرَأَةً إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ: (يَا عَائِشَةُ! مَا كَانَ مَعَكُمْ هُو؟ فَإِنَّ الْأَنْصَارَ يُعْجِبُهُمُ اللَّهُ).⁶⁸ في هذه المناسبة السارة، أقر النبي الكريم ﷺ بأسلوبي الإنشاء المتمثل في قوله: (يَا عَائِشَةُ! مَا كَانَ مَعَكُمْ هُو؟)، والخبر المتمثل في قوله: (فَإِنَّ الْأَنْصَارَ يُعْجِبُهُمُ اللَّهُ) اللهو المباح، أي: الدف والغناء، وأكدته إشاعة للسرور، وترويحاً للنفوس.

د - رعاية أحوالهن في مقام التعليم والتربية:

الحديث الأول: روي عن عائشة رضي الله عنها:

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ أَنَّ يَعْتَكِفَ الْعَشْرَ الْأَوَّخِرَ مِنْ رَمَضَانَ، فَاسْتَأْذَنَتْهُ عَائِشَةُ فَأُذِنَ لَهَا، وَسَأَلَتْ حَفْصَةَ عَائِشَةَ أَنْ تَسْتَأْذِنَ لَهَا فَفَعَلَتْ، فَلَمَّا رَأَتْ ذَلِكَ زَيْنَبُ ابْنَةُ جَحْشٍ أَمَرَتْ بِنَاءً، فَبْنَى لَهَا. قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ إِذَا صَلَّى انْصَرَفَ إِلَى بَنَائِهِ فَبَصُرَ بِالْأَيْتَةِ، فَقَالَ: (مَا هَذَا؟) قَالُوا: بِنَاءُ عَائِشَةَ وَحَفْصَةَ وَزَيْنَبَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: (أَلَيْسَ أَرَدَنْ بِهَذَا؟ مَا أَنَا بِمُعْتَكِفٍ)، فَرَجَعَ فَلَمَّا أَفْطَرَ اعْتَكَفَ عَشْرًا مِنْ شَوَّالٍ.⁶⁹

يظهر بسياق الحديث أن عائشة رضي الله عنها استأذنت النبي الكريم ﷺ للاعتكاف فأذن لها، لكن عندما انصرف بعد الصلاة رأى ثلاثة أختية لعائشة وحفصة وزينب رضي الله عنهن، فقال: (أَلَيْسَ أَرَدَنْ بِهَذَا؟)، في رواية ثانية: (أَلَيْسَ تَقُولُونَ يَهْنُ؟)⁷⁰، وفي رواية ثالثة: (أَلَيْسَ تُرَوْنَ يَهْنُ؟)⁷¹، وفي رواية رابعة: (مَا حَمَلَهُنَّ عَلَى هَذَا؟ أَلَيْسَ؟ انْزِعُوها فَلَا أَرَاهَا)⁷²، في كل الروايات قوله ﷺ بأسلوب الاستفهام يفيد الإنكار لفعلهن، لا لاعتكافهن، ويقصد رسول الله ﷺ من هذا الحث على ترغيبهن في العبادة بالإخلاص ، بحسب مقتضى الحال.

⁶⁸ صحيح البخاري: كتاب: النكاح، باب: النِّسْوَةُ اللَّائِي يَهْدِيْنَ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا وَدُعَائِهِنَّ بِالْبِرَّةِ، حديث: ٥١٦٢

⁶⁹ صحيح البخاري: كتاب: الاعتكاف، باب: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَعْتَكِفَ ثُمَّ بَدَأَ لَهُ أَنْ يَخْرُجَ، حديث: ٢٠٤٥

⁷⁰ صحيح البخاري: كتاب: الاعتكاف، باب: الْأَخِيَّةُ فِي الْمَسْجِدِ، لحديث: ٢٠٣٤

⁷¹ صحيح البخاري: كتاب: الاعتكاف، باب: اعْتِكَافِ النِّسَاءِ، حديث: ٢٠٣٣

⁷² صحيح البخاري: كتاب: الاعتكاف، باب: الإِعْتِكَافُ فِي شَوَّالٍ، حديث: ٢٠٤١

"رعاية أحوال المخاطبين في الخطاب النبوي - أزواج النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً"

الحديث الثاني: روي عن عروة بن الزبير: ⁷³

أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ، قَالَتْ: دَخَلَ رَهْطٌ مِنَ الْيَهُودِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَقَالُوا: السَّامُ عَلَيْكُمْ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَفَهَّمْتُهَا فَقُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، قَالَتْ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: (مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ) فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا قَالُوا؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: (قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ). ⁷⁴

في هذا السياق يعلم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم السيدة عائشة رضي الله عنها الرفق في المعاملة وحسن القول، وذلك لأنها تعجّلت في الرد على اليهود بقولها: وَعَلَيْكُمْ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ - السام: معناه الموت - وفي بعض الروايات: عَلَيْكُمْ، وَلَعَنَكُمْ اللَّهُ، وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ⁷⁵، توضح هذه الرواية أن السيدة عائشة رضي الله عنها لما سمعت ما قالوا (السَّامُ عَلَيْكُمْ) فلم تتمالك نفسها من الغضب، لكن النبي الكريم صلى الله عليه وسلم لم يعجبه ذلك منها، فقال لها: (مَهْلًا يَا عَائِشَةُ) بالمصدر النائب عن فعل الأمر، حذف الفعل (أمهلي) وذكر المصدر لزيادة تأكيد الأمر، بمعنى: تأني وترفقي، ثم زاد التأكيد على المصدر بقوله: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ) بَيِّنًا، إشعارًا للمخاطبة أن الله تعالى يحب اللين في القول والفعل. وفصلت هذه الجملة عن الجملة التي قبلها لكمال الاتصال بينهما، فالثانية مؤكدة للأولى. وهذا الفصل يدل على إنكار النبي الكريم صلى الله عليه وسلم وكراهيته لقول عائشة رضي الله عنها.

وفي بعض الروايات، قال: (مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ، وَإِيَّاكَ وَالْعُنْفَ وَالْفَحْشَ) ⁷⁶، أي: أمهلي مهلاً، وارفقي، وابتعدي عن العنف، استعمل أسماء الفعل (عَلَيْكَ، إِيَّاكَ) في سياق غريبة الأمر ومخالفته للطبيعة. ثم علّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يكون الرد، فقال: (قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُمْ)، هكذا حث رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها بهذه الأساليب على اللين في القول والرفق في مقام التعليم والتربية حسب مقتضى الحال.

⁷³ هو عروة بن الزبير بن العوام، القرشي الأسدي، كان ثقة كثير الحديث فقيهاً عالماً مأموناً ثباتاً، وكان من أفاضل أهل المدينة وعلمائهم، توفي ٩٤ هـ. ينظر: الطبقات الكبرى: ٥: ١٣٦-١٣٩

⁷⁴ صحيح البخاري: كتاب: الأدب، باب: الرَّفْقُ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ، حديث: ٦٠٢٤، كتاب: الاستئذان، باب: كَيْفَ يُرَدُّ عَلَى أَهْلِ الدِّمَةِ السَّلَامُ، حديث: ٦٢٥٦

⁷⁵ صحيح البخاري: كتاب: الأدب، باب: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، حديث: ٦٠٣٠، كتاب: الدعوات، باب: قَوْلُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: (يُسْتَحَابُّ لَنَا فِي الْيَهُودِ، وَلَا يُسْتَحَابُّ لَهُمْ فِينَا)، حديث: ٦٤٠١

⁷⁶ صحيح البخاري: كتاب: الأدب، باب: لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم فَاحِشًا وَلَا مُتَفَحِّشًا، حديث: ٦٠٣٠، كتاب: الدعوات، باب: قَوْلُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم: (يُسْتَحَابُّ لَنَا فِي الْيَهُودِ، وَلَا يُسْتَحَابُّ لَهُمْ فِينَا)، حديث: ٦٤٠١

الحديث الثالث: رُوي عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

دَخَلَ عَلَيَّ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدِي رَجُلٌ قَالَ: (يَا عَائِشَةُ مَنْ هَذَا؟) قُلْتُ: أَخِي مِنَ الرِّضَاعَةِ. قَالَ: (يَا عَائِشَةُ انْظُرِي مَنْ إِخْوَانُكَ، فَإِنَّمَا الرِّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ⁷⁷).⁷⁸

إن استفهام النبي الكريم ﷺ بقوله: (يَا عَائِشَةُ مَنْ هَذَا؟)، فيه غيرة الزوج على زوجته، فقد أنكر وجود هذا الرجل الأجنبي مع عائشة رضي الله عنهما، حيث ظهرت الكراهية على وجهه، كما في الرواية: فَكَأَنَّهُ تَغَيَّرَ وَجْهُهُ كَأَنَّهُ كَرِهَ ذَلِكَ⁷⁹ ثم قال لها: (انْظُرِي مَنْ إِخْوَانُكَ، فَإِنَّمَا الرِّضَاعَةُ مِنَ الْمَجَاعَةِ)، فنبهها بصيغة الأمر إنكاراً على الأخوة التي لا تحلّ بها الخلوة، وأكد على التحقق من أمر الرضاعة، هل الرضاع صحيح بشرطه؟ ثم اختار أسلوب القصر بـ (إِنَّمَا) لتصحيح ظنها، وأكد أن الرضاعة من المجاعة، - أي: من الجوع، هي الرضاعة التي تقع بها الحرمه، هي ما كان في الصغر⁸⁰ - وقد قصد باستعماله أسلوب القصر مراعاة حاجة النفس إلى التعليم والتربية، بحسب مقتضى الحال.

الحديث الرابع: رُوي عن أم سلمة رضي الله عنها:

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ عِنْدَهَا وَفِي الْبَيْتِ مُحَنَّتٌ، فَقَالَ الْمُحَنَّتُ لِأُخِي أُمِّ سَلَمَةَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أُمَيَّةَ: إِنَّ فَتَحَ اللَّهُ لَكُمْ الطَّائِفَ غَدًا أَذْلُكَ عَلَى بِنْتِ عَيْلَانَ فَإِنَّهَا تُقْبِلُ بِأَرْبَعٍ وَتُدْبِرُ بِثَمَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: (لَا يَدْخُلَنَّ هَذَا عَلَيْكُمْ⁸¹).

في هذا السياق يمنع النبي الكريم ﷺ دخول المحنث على النساء بقوله مستخدماً أسلوب النهي: (لَا يَدْخُلَنَّ هَذَا عَلَيْكُمْ)، وفي بعض الروايات: (لَا يَدْخُلَنَّ هَؤُلَاءِ عَلَيْكُمْ⁸²)، بصيغة النهي

⁷⁷ المجاعة من: جاع، يجوع، جوعاً وجوعاً ومجاعةً. الصحاح: مادة: ج و ع.

⁷⁸ صحيح البخاري: كتاب: الشهادات، باب: الشَّهَادَةُ عَلَى الْأَنْسَابِ وَالرِّضَاعِ الْمُشْتَفِيزِ وَالْمَوْتِ الْقَلِيمِ، حديث: ٢٦٤٧

⁷⁹ صحيح البخاري: كتاب: النكاح، باب: مَنْ قَالَ: لَا رِضَاعَ بَعْدَ حَوْلَيْنِ، حديث: ٥١٠٢

⁸⁰ معناه: أن الرضاعة التي تقع بها الحرمه هي ما كان في الصغر، والرضيع طفل يقوته اللبن ويسد جوعه، وأما ما كان منه بعد ذلك في الحال التي لا تسد جوعه اللبن ولا يشبعه إلا الخبز واللحم وما في معناهما من الثقل، فلا حرمه له. " ينظر: معالم السنن شرح سنن أبي داود: أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطّاب البستي الخطّابي ٣٨٨هـ، (حلب: المطبعة العلمية، ط ١٩٣٢م)، ٣: ١٨٥

⁸¹ صحيح البخاري: كتاب: النكاح، باب: مَا يُنْهَى مِنْ دُخُولِ الْمُشْتَفِيزِينَ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْمَرْأَةِ، حديث: ٥٢٣٥

"رعاية أحوال المخاطبين في الخطاب النبوي - أزواج النبي صلى الله عليه وسلم نموذجاً"

المؤكد بالنون الثقيلة، صيغة النهي هنا للغائب، أي: لا يدخلن هؤلاء المختشون عليكم، ولم يقل بصيغة الخطاب: (لا تُدخلن)، لعله التفت من الخطاب إلى الغيبة ليكون الكلام قاعدة عامة لعموم المختشين، ولو جاء بصيغة الخطاب لكان النهي خاصاً للمخاطبات والله أعلم. وفي رواية: (أَخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِكُمْ)⁸³، هنا خاطب زوجاته بصيغة الأمر تأكيداً وحثاً على إخراجهم من البيوت، حتى يكون الكلام مطابقاً للحال. وسبب هذا النهي عن الإدخال ما روي في الحديث (فَإِنَّهَا تَقْبِلُ بِأَرْبَعٍ وَتُدِيرُ بِثَمَانٍ) يوضح بعض محاسن النساء.

الحديث الخامس: روي عن عائشة رضي الله عنها، قالت:

إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ فِي مَرَضِهِ: مُرُوا أَبَا بَكْرٍ يُصَلِّيَ لِلنَّاسِ. قَالَتْ عَائِشَةُ: قُلْتُ: إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمَعْ النَّاسُ مِنَ الْبُكَاءِ فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ لِحِفْصَةَ: قُولِي لَهُ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ إِذَا قَامَ فِي مَقَامِكَ لَمْ يُسْمَعْ النَّاسُ مِنَ الْبُكَاءِ فَمُرْ عُمَرَ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ، فَفَعَلْتُ حِفْصَةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَهْ، إِنَّكَ لَأَنْتِ صَوَاحِبُ يُوسُفَ مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ)، فَقَالَتْ حِفْصَةُ لِعَائِشَةَ: مَا كُنْتُ لِأُصِيبَ مِنْكِ خَيْرًا.⁸⁴

قوله صلى الله عليه وسلم: (مَهْ، إِنَّكَ لَأَنْتِ صَوَاحِبُ يُوسُفَ)⁸⁵، بصيغة اسم الفعل الدال على الأمر (مه)، زجراً في مقام الإنكار على فعل عائشة رضي الله عنها وحفصة رضي الله عنها، ثم أكد خطابه لمن بعده مؤكداً: (إن - واللام) بأنهن صواحب يوسف، وذلك لشدة إنكاره لفعلهن، وحرصاً على تعليمهن

⁸² صحيح البخاري: كتاب: المغازي، باب: عَزْوَةُ الطَّائِفِ، حديث: ٤٣٢٤، كتاب: اللباس، باب: إِخْرَاجُ الْمُتَشَبِّهِينَ بِالنِّسَاءِ مِنْ الْبُيُوتِ، حديث: ٥٨٨٧

⁸³ صحيح البخاري: كتاب: اللباس، باب: إِخْرَاجُ الْمُتَشَبِّهِينَ بِالنِّسَاءِ مِنْ الْبُيُوتِ، حديث: ٥٨٨٦، كتاب: المحارِبِ مِنَ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالرَّدَةِ، باب: نَهْيُ أَهْلِ الْمَعَاصِي وَالْمُخْتَلِئِينَ، حديث: ٦٨٣٤

⁸⁴ صحيح البخاري: كتاب: الأذان، باب: أَهْلُ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ أَحَقُّ بِالْإِمَامَةِ، حديث: ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٢، باب: حَدُّ الْمَرِيضِ أَنْ يَشْهَدَ الْجُمُعَةَ، حديث: ٦٤٤، باب: مَنْ أَسْمَعَ النَّاسَ تَكْبِيرَ الْإِمَامِ، حديث: ٧١٢، باب: الرَّجُلُ يَأْتُمُ بِالْإِمَامِ وَيَأْتُمُ النَّاسُ بِالْمَأْمُومِ، حديث: ٧١٣، باب: إِذَا بَكَى الْإِمَامُ فِي الصَّلَاةِ، حديث: ٧١٦، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ

لِلنَّاسِ آيَاتٍ﴾ سورة يوسف، حديث: ٣٣٨٤، ٣٣٨٥، كتاب: الاعتصام بالكتاب والسنة، باب: صَلَاةُ اللَّيْلِ، حديث: ٧٣٠

⁸⁵ وصواحب يوسف يحتمل أنهن النسوة اللاتي قطعن أيديهن أي صديقات امرأة العزيز، أو امرأة العزيز وحدها. " ووجه الشبه بينهما: في التظاهر على ما يردن، وكثرة تردادهن بالإغراء، وإلحاحهن على حاجاتهن وما يملن إليه، كظواهر امرأة العزيز ونسائها على يوسف ليصرفنه عن رأيه في الاستعصام. " إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٢: ٣٣٤

ضرورة تنفيذ أوامره صلّى الله عليه وسلّم ، لأنهما لما ينفذا أوامره وتصرفا من نفسيهما. وفي هذا مراعاة لأحوالهن ومطابقة للخطاب مع ما في واقعهن من السلوك الأخلاقي الذي قصد بخطابه أن يقوم على أساس إنكار فعلهن.

تلك هي الأحوال التي راعى فيها المتكلم حال المخاطبات ، وخاطبهم بالحديث مطابقا للحال، مناسبة للمقام مصيبا للهدف، واقعا من نفس السامع أحسن موقع.

الخاتمة:

بعد هذه الرحلة الممتعة والمعيشة الطيبة لأقوال النبي الكريم صلّى الله عليه وسلّم، توصل البحث إلى النتائج التالية:

- إن البلاغة مدارها على رعاية المتكلم في كلامه الفصيح لمقتضى الحال.
- إن لغة الخطاب النبوي في غاية البيان، وعلى درجة كبيرة من الفصاحة.
- خطابه صلّى الله عليه وسلّم مثال رائع لمراعاة الحالة النفسية للمخاطب عند الكلام باختيار التعبير الملائم لذلك.
- رعاية النبي الكريم صلّى الله عليه وسلّم في خطابه لأحوال زوجاته والعوامل المؤثرة فيها، وقد ظهر ذلك في اختيار الألفاظ والعبارات والمعاني والأساليب الملائمة لحالهن.